مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، المجلد العشرون، العدد الثاني، ص215– ص245 يونيو 2012
ISSN 1726-6807 http://www.iugaza.edu.ps/ar/periodical/

"أسلوبية السؤال في شعر عبد الرحيم عمر:الإتكاء على الأسئلة في مواجهة الحيرة"

الدكتورة / فوز سهيل كامل نزال
أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية الجامعة الأردنية
fawznazzal@yahoo.com

مُلخّص: استخدم الشاعر عبد الرحيم السؤال في جلّ قصائده ، وتعددت المواقع التي احتلتها أسئلة عبد الرحيم عمر في جسد خطابه الشعري ، فتارة يتربّع السؤال مطلع القصيدة مجسما حيرة البدء ، وأخرى يبرز في صلب الخطاب مجسّما تأزّم الصراع الداخلي الذي عاناه الشاعر وهو يطرح قصة شعبه الفلسطيني ، ويختم بالسؤال طائفة أخرى من قصائده موحيا بخاتمة مفتوحة تستفز تفكير القارئ بحثا عن الإجابة.وتحاول هذه الدراسة معالجة تركيب السؤال في تواجده النابض الحيّ في لغة عبد الرحيم عمر الفنيّة ، وذلك في ضوء الرؤية الأسلوبية التي تقف عند علّة اختيار هذا التركيب اختياراً مخصوصاً بوصفه سؤالاً ، والدلالات التي خرج إليها متجاوزاً معناه الحقيقي المنحصر في الاستفهام ، وذلك بعد بيان الكيفية التي جاء عليها السؤال في النص ومدى كثافته الأسلوبية. وجاءت الدراسة في ثلاثة محاور ؛ تناولت في المحور الأول الاستهلال بالسؤال في مطالع عدد من قصائد الشاعر، أما المحور الثاني فتناول تتالي تركيب السؤال في مجموعة من القصائد، بحيث تبدو للسؤال كثافة أسلوبية بارزة في النص تجعلنا نتساءل عن العلة الدلالية لهذا الحضور اللافت.وفي المحور الثالث إلتفتت الدراسة لمتلقي السؤال في نص عبد الرحيم عمر في محاولة لرصد الفئة التي استهدفتها هذه الأسئلة وكيف أثّر هذا المتلقي في دلالات الأسئلة وتوزيعها وكثافتها.

The Questioning Technique in Abd Al-Raheem Umar's Poetry: Questions to confront bewilderment

Abstract: Poet Abd Al-Raheem employs the question technique in most of his poems. He uses this style in various places throughout his poetic discourse. Sometimes the question occupies the poem's introduction and other time it occupies the poem's core, reflecting the poet's bewilderment of his internal struggle when he introduces his Palestinian people story. On the other hand, Abd Al-Raheem, also, employs the question style at the conclusion, proposing an open end to provoke the reader to seek answers.

The study attempts to deal with the question structure and its vital touching role in Abd Al-Raheem's artistic language. It, also, highlights the stylistic vision that explains choosing such a structure. Moreover, the study deals with how the question style is exploited and its stylistic intensity. Finally, the study can be concluded into three main points. The first point focuses on how the poet initiates his poems by using the question style. The second point explores the continuity of question structure in a number of Abd Al-raheem's poems, revealing the impact of the stylistic intensity within the text urging the readers

to ask about the connotative function for the questions. Finally, the study investigates the receiver response for the question style trying to link between the receiver response to the questions and its effect in understanding the questions connotations, diversity and intensity.

تمهيد:

استخدم الشاعر عبد الرحيم السؤال في جلّ قصائده ، وتعددت المواقع التي احتلتها أسئلة عبد الرحيم عمر في جسد خطابه الشعري ، فتارة يتربّع السؤال مطلع القصيدة مجسماً حيرة البدء ، وأخرى يبرز في صلب الخطاب مجسّماً تأزّم الصراع الداخلي الذي عاناه الشاعر وهو يطرح قصة شعبه الفلسطيني ، ويختم بالسؤال طائفة أخرى من قصائده موحياً بخاتمة مفتوحة تستفزُّ تفكير القارئ بحثا عن الإجابة.

وتحاول هذه الدراسة معالجة تركيب السؤال في تواجده النابض الحيّ في لغة عبد الرحيم عمر الفنيّة ، وذلك في ضوء الرؤية الأسلوبية التي تقف عند علّة اختيار هذا التركيب اختياراً مخصوصاً بوصفه سؤالاً ، والدلالات التي خرج إليها متجاوزاً معناه الحقيقي المنحصر في الاستفهام ، وذلك بعد بيان الكيفية التي جاء عليها السؤال في النص ومدى كثافته الأسلوبية.

ولا نبالغ إذا قلنا: إنّ السؤال في قصائد عبد الرحيم عمر يشكل ظاهرة فنيّة لها وزنها في المنظومة الجمالية لنصه الشعري، فقليلة هي القصائد التي تخلو من السؤال في دواوينه الشعرية، وكأنما يريد أن يفجّر بأسئلته هموماً فكرية تسكنه فلا يكاد يتخلص منها حتى يمتلئ بها من جديد. إنها وسيلته الأساسية في التواصل مع القارئ لجعله متفاعلاً معه باحثاً وإياه عن إجابات لأسئلته المفعمة بالحيرة والألم والبحث عن تفسير لحقيقة ما حدث.

وبما أن عبد الرحيم عمر عانى حيرة وضياعاً وعجزاً في استيعاب النكبة الفلسطينية ،وآثارها على الشعب الفلسطيني عامة ،وعلى نفسه المرهفة خاصة، فلا غرو أن يكون السؤال من أكثر الأساليب البلاغية استعمالاً عنده، فالرغبة في التنفيس عن المشاعر المتخبطة، وإشراك الناس (القرّاء) بالتفاعل والتوحُّد والتعاطف مع قضيته ، تُعطي السؤالَ حضوراً في نصوص عبد الرحيم عمر ،فالسؤال هو وسيلة الدفاع، وهو السبيل إلى إبراز الحقيقة، بالإضافة إلى أنه التركيب القادر على استيعاب المشاعر الحائرة ،وما تكابده من ألم، وهو شكل من أشكال تجسُّد الهزيمة على مستوى البناء الفنيّ للقصيدة.

ودراسة ظاهرة مثل السؤال في أيّ نص أدبي، تتطلب التطرق إلى جوانب عدة، وتتفرع إلى مجالات معنويّة و أسلوبيّة و إيقاعيّة كثيرة. لكننا في هذه الدراسة الموجزة اكتفينا بثلاثة محاور،

نراها توصل إلى إدراك قيمة السؤال الجمالية عند شاعر لا يملك إلا أن يسأل، ولعلَّ سؤاله هو باب الحرية الوحيد الذي يستطيع أن يطرقه .

وقد تناولت الدراسةُ في المحور الأول، الاستهلالَ بالسؤال في مطالع عدد من قصائد الشاعر، أما المحور الثاني، فتناول تتالي تركيب السؤال في مجموعة من القصائد، بحيث تبدو للسؤال كثافة أسلوبية بارزة في النص، تجعلنا نتساءل عن العلة الدلالية لهذا الحضور اللافت.وفي المحور الثالث، إلتفتت الدراسة لمتلقي السؤال في نصّ عبد الرحيم عمر في محاولة لرصد الفئة التي استهدفتها هذه الأسئلة، وكيف أثّر هذا المتلقي في دلالات الأسئلة، وتوزيعها وكثافتها،وحاولت الدراسة في محاورها الثلاثة بيان دلالات عدد من أسئلة الشاعر، مستحضرةً البعد التداولي ،علما أنه يصعب حصر دلالات السؤال في التصنيف البلاغي المعهود[1] ؛لأن لكل سؤال بلاغي وجوداً دلالياً خاصاً قائماً بذاته ،وقد تتداخل هذه الدلالات بطريقة يصعب بها الإمساك بالدلالة الأقوى أو الأكثر حضوراً.

وبهذا نكون في هذه الدراسة قد قرأنا أسلوب السؤال بوصفه تعبيراً عن شخصية الشاعر، وبوصفه أثراً في المتلقي ناتجاً عن خصائص داخلية في النص ، وهي رؤية تتفق مع اتجاهين أساسين من اتجاهات الأسلوبية؛الاتجاه الذي يرى الأسلوب تعبيراً عن المُرسل ، والاتجاه الذي يراه أثراً في نفس المستقبل.[2]

وقد جاء اختيار مصطلح "السؤال" بدلاً عن مصطلح"الاستفهام" تأثراً واقتناعاً بما جاء في دراسة عيد بلبع الموسومة بـــــ" أسلوبية السؤال" ،التي عرض فيها الفرق بين المصطلحين وخرج بعد استعراض المفهومين بأنّ الاستفهام لا يصلُح مصطلحاً يفي بالمادة التي تندرج تحت مفهومه في الدرس البلاغي ، وأنّ الخروج عن مفهومه الاصطلاحي أضعاف الامتثال له،فالاستفهام لا يكون إلاّ لما يجهله المُستفهم أو يشكّ فيه،وذلك أنّ المُستفهم طالب لأن يفهم ، أمّا السائل فيسأل عمّا يعلم وعمّا لا يعلم،وهذا ما رأى فيه تبريراً للعدول عن مصطلح الاستفهام إلى مصطلح السؤال، مُتأثراً بما جاء من تفريق بين المصطلحين في كتاب"الفروق اللغة" لأبي هلال العسكري[3] . وفي تتبعنا للدلالات الأسئلة في قصائد عبد الرحيم عمر، رأينا أنّ جُلّها خرج عن طلب الفهم ،أو طلب إجابة محدّدة من المتلقي إلى دلالات أخرى، كان أبرزها الإخبار عن الحيرة والتخبّط بتركيب السؤال؛ لما فيه من مُقوّمات تعبيرية، وقدرة على تجسيم الانفعال كونه سؤالاً فحسب.

وقد اختارت الدراسة في محاورها الثلاثة، الخطوط البارزة لتجليات السؤال في شعر عبد الرحيم عمر ، ولكنها لم تُغفل في رصدها للسؤال، أدواتِه ومفرداتِه خارج إطار التواجد المُهيمن للتركيب

في الخطاب ،فقد طرح الشاعر مصطلح "السؤال" في عدد من قصائده نذكر منها: ما جاء في قصيدة"بكائية بلا وداع"التي كتبها لصديق استُشهد غريبا:

ساءلتُ عنكَ النجمَ والنهرَ الحزين

وعدتُ أسألُ كلَّ من ألقى وأفصحتِ الدّيارُ

فإذا الجوابُ نحيبُ أطفال صغارِ

وآحسرتاه[4]

إنّه يسأل ويكرر سؤاله ، ويفجعه الجواب بقوله :"فإذا" التي توحي بالمفاجأة،فالسؤال ينتظر إجابة أخرى غير تلك التي كان يهرب منها ويخشاها ،ولذا نراه يُتبع الإجابة بقوله :" وآحسرتاه".

ويستخدم مفردة "تساؤلات"في قصيدته الموسومة بـــ" من جنوب لبنان" حيثُ يقول:

من أنتَ؟

بل من أنا؟

من ذلك الجدُّ قتّال ابن ابنته؟

تساؤلات سرت بين الجموع سُدى[5]

فالتساؤلات المفصّلة تجسيم أسلوبيّ لفكرة تماهي الهُوية الممثلة للأنا وللآخر ،حيث أضرب السائل عن سؤاله الأول حين أدرك أنه يجهل أناه، وأوضح الشاعر بعد هذيْن السؤاليْن، أنها تساؤلات زيادة في تجسيم التخبّط والضياع، وبيّن أيضا أنّ تلك التساؤلات لم تجد إجاباتها، فقد سرت "بين الجموع سدى".

بل ونراه يطلب من أُمته السؤال من باب المُساءلة والوقوف على الحقيقة؛فالسؤال هو البحث المُفضي للعلم ، ولكن المعرفة هنا تبدو حزينة ، أو هي الحقيقة المؤلمة التي يعرفها ويخشاها، فيسأل عنها ويطلب من أمته أن تقوم بدور السائل نيابةً عنه،وذلك في قصيدته"يوميات من حزيران"حيث يقول:

خلّ عنكِ شاشة الرادار عودي للجراح النازفة

واسأليها وسلي النجمَ وريحَ العاصفة

أيّ سرّ كان في ليل الهزيمة

أيّ شركاً من خلف الجريمة[6]

أمّا في قصيدة "أقوال شاهد عيان" فيمنع صديقه من توجيه سؤال إليه، تحفيزاً له، وحثّاً على السؤال؛ لأنّ في إجابته عليه، تُكشف الحقيقة؛حقيقة المأساة:

لا تسلْ عن قسوة التّيه أو الغيلان

فالأسرار،إن تبدُ، تبدّت فاضحهْ![7]

ويتربع السؤالُ عنوانَ قصيدته"لِمَن تُقرع الأجراسُ؟!"حيثّ يتوجه بهذا السؤال لصديق مُتخيل ، يوضّح له فيه أن لا فرحة موجودة، لنقرع أجراس العيد ،يقول:

لمن تُدقّ هذه الأجراس يا رفيق؟

فبيتنا لا يعرف الفرح[8]

ويكرر السؤالَ ذاته في ختام القصيدة مضفياً على ذات السؤال مزيداً من دلالات الاستنكار والندبة الحائرة :

لمن تُدق هذه الأجراس يا رفيق

وحارس البوابة اللعين أحكمَ الرّتاجْ

وليس من سلاحنا إلاّ النشيجْ[9]

ويظهر السؤال ظهوراً غير مباشر، في قصيدة عنْوَنَها بـــ" حين انبهم الجواب" فالجواب وليد السؤال، وتموج هذه القصيدة بتساؤلات حائرة لذات المتكلّم فيها،تتحدث عن العشق المكبوت المتجسّم في قصيدة شاعرنا بأسئلة تخشى أن تصل مسامعَ المحبوبة، فتبقى في نفس الشاعر تعذّبه، وهو يحاول الإجابة عنها ولكنه يعلن في النهاية أنّ الجواب مُبهم، يقول:

وأورقت قصيدةٌ

تُساءل الصوفيُّ والضلّيلُ عن جراحها

واطرقا..فانبهمَ الجواب.[10]

وقد وظّف الشاعر عبد الرحيم عمر أدوات السؤال المعروفة، التوظيف المُجسّم لحيرته المتسائلة وقلقه من مصيره، ومصير أمته المجهول، فقد سأل عن المكان،وللمكان حضوره، بل هو قضية أسئلته وجوهرها ،يقول:

تفرُّ؟وأينَ المفرُّ؟

وفي كلّ صوب صليب وأسرُ[11]

وتساءل عن الزمان في قوله:

أيا جدارَ الصمتِ يا جدارْ

حتّامَ يا جدارْ

تلفُّنا دوامة الفناء والبوارْ

حتّام يا جدارْ؟[12]

وكما في قوله:

وبدوا في ساحاتها مُتلثمينْ

فمتى؟متى يسترجعونَ

وجوههم ومتى إلى أسمى معاركهم تعودْ؟[13]

وتساءل عن الكيفيّة أو الطريقة في قوله مُخاطبا المتنبي:

فكيف يا سيدي يُرجى لنا حالُ

ونحنُ في رزئنا الدامي المناكيدُ؟[14]

وتساءل عن الإنسان أو الذات في كثير من قصائده،فقد فُقدت الهوية وكينونة الإنسان العربي ،وغاب المُنقذ والقائد ،وغاب هو أيضا عن ذاته،يقول في قصيدة"قصة الشاعر":

من ذلك السّاعي من الأبد الأبيدِ

على دُجى الأبد الأبيدْ؟[15]

ويقول في قصيدة "ألهميني موقفاً او كلمة":

ليتَ شعري

من يداوي علّة المُضنى؟

ومن يأتي له بالمستحيلْ؟

أغضى الرجالُ![16]

واستخدم في كثير من أسئلته الداعية إلى التأمُّل همزة السؤال ،التي يعقبها الفعل "رأى" وتصريفاته في دعوة إلى مشاركة الشاعر في الرأي أو الفكرة التي يراها هو ،ويريد من الآخر أن يراها،وهذا ما جاء في قصيدته" من قصص الرحيل " التي يقول فيها :

وبكت بيوتُ القرية السمراء هولَ المشهد

أرأيتَ وائدة ابنها تبكي ولماّ يوءد

ضاقت بها رحب الحياة ولم تجد من منجدِ[17]

وفي قصيدة "لم يُطلع القمر" يقول حائراً من غيبة القمر:

واستدارا فتوارى

فانتبهنا وتشاكينا بلا نُطق حيارى

أتراه يقرأ الغيب ويدري ما الذي

يثضمرهُ الناسُ صغارا وكَبارا[18]

وكذلك وظّف همزة السؤال، لتحديد أمر بعينه، لأنه عجز عن الاختيار:

وعذاب الشاعر المفجوع حرفا

أيُغنّي؟ أيُنادي؟

أيقول الجرحُ في الكفّ و لا يملك حرفا؟[19]

ووظّف أداة السؤال "هل" في كثير من تساؤلاته على سبيل الاستخبار الموحي بالخوف، كما في قوله:

يا ويلتا ! هل عادَ بالموتِ التّتارْ؟[20]

وعلى سبيل الاستخبار الموحي بالأمل والتمنّي:

وبالأمس ساءلتُ نفسي

تُرى هل يعودُ الرماد أوارا؟

وهل تحمل الواردات طغلى صاليات الرّمال جرارا؟

وهل يمرع العشب رغم اصفرار الخريف؟[21]

وعلى سبيل الاستنكار والمُساءلة المُنبّهة كما في قوله:

يا دار!

هل صار الدّم العربيّ ماءً؟

أم تنكّرت الدّيارُ لقاصديها[22]

وعلى سبيل النفيّ كما في قوله:

سلامٌ أيا بغداد! هل يكتُمُ الهوى

مُحبٌّ و ما تطوى عليه الأضالعُ؟[23]

واستخدّم غيرها من أدوات السؤال، وما ضربناه من توظيف لتلك الأدوات عند عبد الرحيم عمر، هو غيض من فيض تزخر به قصائده ، وكأنه يعيشُ حالة تساؤل تلقي به بين يديّ أدوات السؤال كلّها بكل دلالاتها.

وقبل البدء بدراستنا هذه لا بدّ من الإشارة إلى الدراسة الشاملة في حياة عبد الرحيم عمر وشعره، للدكتور ناصر شبانة الموسومة بـــــــ" الانتشار والانحسار:دراسة في حياة عبد الرحيم عمر وشعره"[24] ، وفيها تقصّى الباحث المنابع الأولى لعطاء عبد الرحيم عمر الشعريّ، بمعالجته الفنية لطائفة من نصوصه الشعرية، التي زاوج فيها بين العوامل الذاتية في تطوّر البناء الشعري الخاص بعبد الرحيم عمر، والعوامل الموضوعية التي رافقت ملامح التطوّر التاريخي للقصيدة العربية الحديثة،خاصة وأنّ الشاعر واكب في تجربته المراحل الحاسمة في التأسيس للقصيدة الحديثة في الستينات والسبعينات من القرن الماضي ، فقد تحدث الباحث عن المعجم الشعري للشاعر، والتناص،والصورة الشعرية ،وبناء القصيدة وما فيه من بُعد درامي وأنماط

حوارية وبنية سردية ، وتطرّق إلى الموسيقى والإيقاع، ولم يغفل الباحث الحديثَ عن تجربة عبد الرحيم عمر المسرحية، متأمّلاً مسرحيته " وجه بملايين العيون" .هذا بالإضافة إى أنه ختم دراسته بعدد كبير من المصادر والمراجع المتعلقة بعبد الرحيم عمر وتجربته الشعرية.

ومن الذين إلتفتوا لجماليات الاستفهام في الشعر العربي الحديث الباحث عباس عبد الحليم عبـــاس ،فقد كتب مقالة في مجلة الرافد بعنوان" جماليات الاستفهام في شعر عرار:طاقات الأســئلة لفــتح مكامن النّص"[25]،وفيها بيّن أنّ جملة الانشاء هي جملة الحركة والانتقال والحوار والاخـــتلاف، وأن السؤال يقع في بؤرة هذه البنية .ثم تحدّث عن شمولية السؤال في شعر عرار وعن ظـــاهرة "التكرار الاستفهامي" ودور هذا التكرار الدلالي والإيقاعي .

والآن نبدأ بتأمل بنية السؤال في شعر عبد الرحيم عمر، في ضوء النقد الأسلوبي الذي يقف عند هذه البنية بوصفها اختياراً له دلالته، وبوصفها سمة أسلوبية لها حضور لافت في الخطاب، ولها موقعها الخاص فيه.

أولاً : الاستهلال بالسؤال

استهل عبد الرحيم عمر عدداً من قصائده بالسؤال ، وجاء هذا الاستهلال مجسمّاً لدلالة التوتر، كاشفاً لها منذ عتبة الخطاب ، فالتصدّر بالسؤال يفجّر طاقة كبيرة تمارس فاعليتها في المتلقي في استنفاره للإجابة، أو التوحّد مع الفكرة الخبرية التي اختارت أن ترتدي قالب السؤال ،ليقف مبهوراً مسلّماً بها .

يقول في مطلع قصيدة"على الشاطئ"مسائلاً نفسه أسئلة افتراضية، تخيّل فيها أنّ من يراه منهمكاً في قول الشعر ونظمه، سيسأله إياها ويحاصره بأسئلة متتابعة بدلالات التعجّب من صنيعه، لعبثية أشعاره الحزينة في لبنان، التي وصفها بالحرية المُطلقة والفرح الرافض للحزن الكامن في شعره:

وتكتبُ؟ما الذي تبغيهِ؟من يُصغي لقيثارك؟

أما ملّت مزاميرُ الهوى ترداد أشعارك؟ [26]

ويبدو في ردّه على هذه الأسئلة وكأنه راضٍ بحزنه :

ولكنّي أحبُّ غنائي الباكي

فخلّوا الشاعر الجوّال يسمع بوحَ قيثاره[27]

ولا يكتفي بأن يكثّف تواجد السؤال في مطلع القصيدة،فهو يختم القصيدة ذاتها بسؤالين يسبقان النتيجة الحتمية، التي جعلها نهاية افتراضاته الكامنة في السؤالين :

أكان البحرُ يغرقهم؟

أكان الشطُّ ينسيهم صحاراهم؟

لو أنّ الريح تأخذهم وتُرجعهم

لظلَّ هناك شيءٌ ما يُعذّبهم ويرهقهم[28]

وكأنه بهذا التساؤل يردُّ على التساؤل المتتابع في مطلع القصيدة مقدّماً تعليلاً لكلّ من سأل عن سر الحزن في أشعاره .

ويقول مسائلاً القمر في مطلع قصيدته"لم يطلع القمر" :

من تُرى يقرئ أحبابي، وقد غبتَ،

السلامَ؟

يا قمر

يا أنيس الشاعر الميمون مُذ كان السمر[29]

إنه يستنهض عاطفة الاستعطاف عند القارئ بهذا السؤال الاستعطافيّ للقمر ، وبقوله(الشاعر الميمون)يعني أنه أضحى مفتقراً إلى اليُمن والبركة لرحيل القمر.

ونراه يستهلُّ قصيدة"المخاض" بأسئلة متتابعة على لسان شيخ كبير فلسطينيّ، تخيّل أنه سيواجهه بها حين عودته من بغداد، وذلك قبل أن يخاطب بقصيدته بغداد وأهلها، وكأنه يظهر لهم بهذه الأسئلة، أمل الفلسطينيين وتعلّقهم بالعراق:

كيف الأحبة في بغداد يا ولدي

ظلّوا على العهدِ؟أم حادوا ولم نَحدِ؟

وكيف حال نخيل الكرخ شامخة؟

أعذاقه كشموخ الشمس في الأبد

وعن عيون المها ماذا تحدّثني؟

سحر الرصافة أصماني ولم يقدِ[30]

إنها أسئلة تظهر الاشتياق أكثر من كونها انتظاراً لإجابات الشاعر،ولذا جاءت متتابعة بلا فاصل، وتبع كلَّ سؤال تفصيلٌ عن المسؤول عنه، يظهر تعلّق السائل بأهل بغداد الذين وصفهم بالأحبة،وبنخيل الكرخ، وبعيون المها.

ويبدأ مرثيته لصديق له اسمه "أحمد" بسؤال يستوعب ألَمَه وحيرته من شبح الموت الذي يخطف الأحباب، مظهراً بسؤاله جزعه ولوعته، لما في السؤال من تنغيم صاعد ينفّس فيه عن حزنه:

أأبكيكَ؟أم أبقي الدموع لحاليا فداؤك واقلباه! شاكل دائيا [31]

وفي مطلع قصيدة "الرحيل إلى السراب"يُسائل نفسه مُجرياً معها حواراً طويلاً يمتدُّ في جسد القصيدة حتى نهايتها،مجسّماً حيرة الراحلين المُهجّرين ،وضياع أحلامهم، وارتدادهم إلى دواخلهم يسائلون أنفسهم :

ماذا تبّقى بعد أن كُشف النقاب؟

ها أنت والحلم القديمْ

ما زلتما صنوي ضياع واغتراب ْ[32]

إنّه يسأل نفسه مبيّناً علّةَ سؤاله، ومُجسّداً دلالة النفي بسؤال يائس يصفع ذاته بما فيه من حقيقة مفادها : لم يبقَ شيء بعد أن كُشف النقاب،ويُنهي المقطعَ الأول من قصيدته بتكرار السؤال ذاته، مسبوقاً بسؤال آخر، يُصعّد فيه من نبرة الحسرة والألم :

أتُراكَ تدري ما الذي جنت السنون ْ؟

ماذا تبّقى بعد ان كُشف النقابْ؟[33]

ويستهلّ القصيدة الرابعة من قصيدته"قصائد في زمن الانتفاضة"، التي عنوَنها بـــ"الباب" بسؤالين متتابعيْن لبلاده، يجسّمان حيرته وألمَه، وقد أُغلقت أبواب الوصول في وجهه،ولذا كرّر السؤال "من أي باب؟" تكراراً تامّاً :

من أي باب يدخلُ المحرابَ

منفيٌّ يعذبه الحنينْ؟

من أي بابْ؟

كلّت يداه وما يزال يدقُّ بابك ضارعاً

فيردُّهُ صمتُ الجوابْ[34]

إنه يُبيّن ما في السؤال من دلالة الندبة والحسرة بقوله: " صمتُ الجوابْ"، فلا إجابات تشفي ألم سؤاله، أو تُبدد حيرته .

ويجمع في مقطع من مقاطع قصيدته " صلوات في إرَم" بين تتالي الأسئلة وتكرارها تكراراً تاماً، وبين أسلوب الحذف الذي يُظهر حيرته وتحولّه إلى آثار إرَم، لتكمل السؤال وما فيه من يقين وحقيقة، يرغب في أن تشاركه في تجليتها،ويخجل هو أن يُتمم السؤال،فيظهر الحذفُ في سؤاله بياناً يكون فيه الصمتُ أبلغ من الكلام، لما فيه من حقيقة مؤلمة، يقول:

ولذا إني أناديكم

وأنفخ صوري المرتاع في أرجاء واديكم

فإنّي مثلما تدرون بعض عبيد معبدكم

وبعض هوام هذا البرِّ مهما حال أو جفّا

أليس المنتمي العربيُّ عبدا؟إنمّا أوفى

أليس الفارس العربيّ.....؟

أليس الفارس العربيّ....؟

ضعوا ما شئتموا وصفا[35]

كما يستهلّ عدداً من القصائد التي تحوي حواراً مباشراً مع المرأة بالأسئلة ،كما جاء في مطلع قصيدته" الرحيل عن جيّوس"[36] على لسان زوجته التي سألته:

ماذا أعدُّ لك المساءْ؟

فيُعقّب على سؤالها بما يدلّ على تعاطفه وشفقته عليها:

أمضيتِ يومَكِ مثل أمسك والصغارْ

يتوسّلون إليك من تعب ومن خوف ونار

ثم يقول مكرّراً سؤالها بسؤاله لها، مُحمّلاً سؤاله دلالة الإنكار، وكأنّه يقول لها :عليك أن لا تسألي هذا السؤال، كوْني لا أستحقُّ ما فيه من دلالة الاحترام، وأنا القاعد الذي لا يعرف كيف يدافع عن أسرته وبلاده :

وتسائلين عن المساء

ماذا أعدُّ لك المساءْ؟

بل وترتفع وتيرةُ إنكاره بسؤالين يتبعان سؤالَه لها:

ماذا أعدّ رسول جيش الظلمة الدهماء في ليل السنين؟

أكذا تكون الخاتمهْ؟

فتجمّلي وتحمّلي....يا فاطمهْ[37]

وفي قصيدة"بطاقة عابر مجهول"[38]،يستهلُّ الشاعر خطابه بسؤال يردُّ فيه على سؤال افترض أنّ سيدةً ما وجهته إليه: "من أنت؟"،ثمّ تتالت أسئلته ،التي هي تكرار لأسئلتها،وأتبع كلّ سؤال بجواب، نفّس فيه عن أخبار يرغب في إيصالها للقارئ، ليطّلع الأخيرُ على واقع الإنسان الفلسطيني الذي غدا عابراً مجهولاً، وبهذا يكون السؤال وسيلةً للبوح والكشف، بل وتمتد هذه العتبة؛عتبة السؤال في جسد النص حتى نهايته،فهو يستهلُّ كلَّ فكرة بسؤال حمّله لسانَ سيّدته :

من أنا سيدتي ؟

عابرٌ آخر قد ألقى به البحرُ إلى رمل الجزيرة

وإذا شئتِ مزيدا

عاشقٌ بعثر بين الرّمل وبين النخلِ حكاياهُ الأثيرة

مهنتي ؟

أكتبُ شعرا وأُغنّي

حينما يحرقني حرُّ الظهيرهْ

وأحيلُ الريحَ والبحرَ شراعا وجنوناً

غير ترنيمة نوم في دُجى ليل العشيرة

موطني؟

كلُّ بلاد الناس كلُّ الأرصفة

كلّ موج في هجوم العاصفة

كان يا سيدتي لي موطنٌ

فغدا أرضَ المآسي النازفة

والنهاية؟

أنا أدري أنّ كرَّ الموج لم يعرف نهاية

هكذا خبّرَنا شيخُ الرياح

ويتّكئ على المرأة مرة أخرى في طرح تأمّلاته التي يبدأها بسؤال يمتد في جسد القصيدة ويتغلغل ، ولكنه هذه المرّة يسألها بأسلوب غير مباشر، وذلك بأسئلة يوجهها للقارئ، داعياً إياه إلى تأمّل يوحده مع تجربته ،ويدخله في قلب المشهد، فأميرته مريضة لفّها الصمتُ، فباتت لا تردُّ جواباً، يقول في مطلع قصيدة(الأميرة ...مريضة)[39]:

ما الذي حلّ بالحلوة الراقدهْ

فإذا بالجمالْ

مُسلم للمآلْ

بعد طول النزالْ

حُلُما طالما راودَهْ؟

وإذا بالدلال مثقل بالنبالْ

وبليلى الليالْ

طوع جرَّاحها ساجدهْ؟

إنّه يجعل السؤال عتبةً لوصفها الذي وقف عنده حائراً متألماً جامعاً بين صورتيْن لها متضادتيْن؛صورة الماضي المشرقة،وصورة الحاضر المثقلة بعتمة المرض؛فالجمال مسلم

للمآل،والدلال مثقل بالنبال. ويشتدُّ ألمه وحيرته فلا يجد إلاّ السؤال ليُجسّم مشاعره المتأججة ،بل نراه يتبع السؤال بأسئلة متتابعة ،هي في ذاتها إجابات متخبّطة، يحاول فيها الإجابة عن السؤال الأول الذي استهلَّ قصيدته به:"ما الذي حلَّ بالحلوة الراقدة؟" فيقول :

ما الذي أطفأ الشعلةَ الموقدةْ؟

أتراه السّنا

أم عنيف الضنى

أم رفيف المنى

شعّ في غرّ أحلامها الواعدةْ؟

أم تراه الزمان

ضاق بالتيه والعنفوان

فسرت في أمان كفُّهُ الحاقدةْ

تطعن الحسن والروعة الزائدةْ؟[40]

ويسأل بعد إجاباته التي تقولبت في قوالب الأسئلة ،وكأنّ كلّ سؤال يؤول إلى سؤال :

ماالذي أوقع المهرة الشاردةْ؟

فإذا بالمقام

في سرير السّقام

بعد طول الخصامْ

بين نبع الرؤى و رؤى الواردةْ[41]

هذا بالإضافة إلى مطالع قصائد أخرى استهلها الشاعر عبد الرحيم عمر بالسؤال، في دعوة منه للقارئ بالدخول إلى عالمه النفسي ،وفي تأمُّلٍ يجعله متوحِّداً مع رؤية الشاعر .وقد لا حظنا أنّ جُلَّ هذه المطالع ولّدت أسئلة متتالية امتدت في جسد القصيدة ،وهذا يقودنا للبَدء في المحور الثاني من هذه الدراسة .

ثانياً: الأسئلة المُتتالية

يُشكّل السؤال في جُلّ قصائد عبد الرحيم عمر سمة أسلوبية مهيمنة ، فحضور هذا التركيب جاء واضحاً لافتاً مُؤكّداً بتوليده لأسئلة عديدة، تحتلُّ جسد القصيدة في محاولة تأثيرية تحاصر المُخاطَب، وتُثري الدلالة المقصودة وتكثِّفها .فالسؤال يمتد ليُشكّل رؤية كاملة،رؤية يملؤها التوتر والحيرة والتخبُّط والرفض، وكأنّ الأسئلة تأخذ برقاب بعض في سلسلة طويلة ،ففي قصيدة "

المرقّش في أيامه الأخيرة" تتوالى الأسئلة في مُحاكمة أو مقاضاة غاضبة من الصمت الذليل،فهو لايريد إجابات لأسئلته ، فأسئلته هي اليقين الذي يحاصر به متلقّيه يقول:

فإذا مال بنا الدربُ وأبعدنا عن المسرى النبيل

جاز أن نصرخ في وجه السماء

فمن الأجدر بالدرب النبيلْ؟؟

ومن الأجدرُ أن ينقل للباقين،بالدم،ونبض الموت،منّا ذلك العبء الثقيلْ؟

يا لأحلام الصبايا! ومراثي الشعراءْ

كيف تبكينا ووجه الفرح الكاذب يكسو الصفّ

والسَّعفَ وأحلام النخيلْ؟

أيُّ ركب بعضه مؤتمرٌ بالبعض

والحادي أحاديه من البغض

وحظُّ الرحلة المنكود مرهون بأحقاد ذليلِ

طامعات بذليلْ

أيّ شاراتٍ وثاراتٍ إذا ما هبّت الريح

و لا نقش على صخر

ولا خطٌّ على قبر

و لا من يرسل الصوت ينادي يا لثاراتِ القبيلْ؟![42]

ثم يطرح سؤالاً متبوعاً بإجابة،وهنا تكون الإجابة ليست مجرّد اقتراح أو احتمال،إنها إجابة صارمة، لا يريد السؤال سواها،فهي الإجابة الوحيدة ،فوشم الدم الباهت هو ما نملكه، ولا نملك شيئاً آخر،وعبد الرحيم عمر بهذا يقف على الإجابة، ويوقف المتلقي عليها ،ليحمله على الرفض؛رفض الصمت والاستسلام:

ما الذي نملكُ أن نبقي

سوى وشم دماء باهتات اللون[43]

وفي قصيدة"أقوال شاهد عيان" يسأل على لسان بطلها ،وتتلاحق الأسئلة والإجابات المحتملة لها؛تلك الإجابات التي تقولبت في أسئلة ،حُذفت أداتها مُجسّمةً الصراع الداخليّ العنيف لصاحبها الحائر من آثار الحرب المُدمّرة:

ما الذي تُبصره العين؟ قبورٌ؟

أم وشومٌ رُقّشت وجه الجبال

فبدت شامخة راسخة
وهي في بحر أساها سابحة
ما الذي ظلَّ على الأرض الأسيرهْ
أبيوت تلكُمُ أم أضرحهْ؟
أم قباب بالمآسي طافحهْ
وبقايا من شهود المذبحة؟[44]

ويخاطب صديقه الشاعر عليّ في مرثيته"استشهاد شاعر" بأسئلة متتابعة، تجسّم حزنه الحائر ،وكأنه يطلب من صديقه الميت الجواب:

من أُعزّي فيك؟قل لي ياعليُّ
فالمدى يشهق،والدمعُ سخيُّ
أأُعزّي الشعر؟والشعر هنا
ضائع في مهمة القول عييُّ
أم أعزّي الأهلَ والصحب وفي
كلّ نادٍ لك تقديرٌ حفيُّ؟[45]

إنه يسأل صديقه:" من أُعزّي فيك؟" ،ويحثه على الإجابة:"قل لي "، وينابيه خارجاً بندائه إلى دلالة اللوعة والتحسُّر :" يا عليّ" ، وعلّل بعدها ما في سؤاله من الدلالات بتفسير تفصيليّ:"فالمدى يشهق والدمع سخي"، ويقترح بسؤاله الثاني إجابة ،فهو السائل وهو المُجيب: " أأُعزّي الشعر؟"،ويتبعه بسؤالٍ آخر يقترح فيه إجابة أُخرى:"أم أُعزّي الأهل؟"،و تُؤكّد هذه الأسئلة المتتابعة، فكرة انعدام من يُعزّيه الشاعر باستشهاد صديقه الشاعر عليّ ، فالشعر:"ضائع في مهمة القول عيي" ، وفي كلّ نادٍ له "تقدير حفيّ".

وتتوالى الأسئلة في قصيدة " الشهيد" ،حين يوجّه خطابه إلى الشهيد سليمان خاصة ، وكأن الأسئلة تلاحق الشهيد بحثاً عن الخلاص من الحيرة ،فهو وحده من عرف الإجابة ومات في سبيلها ،ولكنه بموته عزّز حيرة شاعرنا وآلامه، فانتقلت دلالة الأسئلة إلى معنى العتاب،فكيف يفارق وطنه ،وهو أحوج ما يكون إلى نصرته ، يقول:

سليمان ! فيم اعتذار السلاحْ؟
و فيم إذا ما استكنتَ العزاءْ؟
وقد عصفت دامياتُ الجراحْ
وطافت بليل الحمى المستباحْ

فطالت وغالت هواك المباحْ
أيصدأ بين يديك السلاحْ؟
وفي كل صدر تغورُ الرماحْ؟
ولايملكُ الأهل غير الإباءْ
ورزء الإسارِ
وعبء الذّمارِ
وتحرسُ أنت العراءْ
و كرَّ الغبار وفرّ الهواءْ؟[46]

بل ونرى الشاعر يتقمّص مشاعر الشهيد سليمان ويُسقط عليها مشاعره بأسئلة متتابعة، يوجه فيها اتهاماً لكلّ من تخاذل ، ويرى السؤال سوطاً يجلد الروح، ويحتار بحثاً عن إجابة تحدّدُ فيها أيَّ الخصمين أوْلى بناره وحرقة ثاره،ولذا نراه يكرر السؤال مرتيْن في ملاحقة ترنو إلى المواجهة بالحقيقة ، بحيث تضع المتلقي للسؤال، في وضع عليه فيه أن يختار من سيكون خصمه، فيوجه إليه نار الثأر، وهنا يتأجج الصراع؛ فالعدو هو القريب، والقريب هو العدو، والصديق غائب مفقود:

ويربدّ وجه القمر
ويجلد روحَكَ سوطُ السؤالْ
وتحتارُ فيه
كأنَّ شواظاً من الغُبن فوق الروابي انهمرْ
ليحجب عن ناظريك الضياء
تُرى أيُّ خصميكَ أولى بنارِكْ؟
وحرقة ثارِكْ؟
عدوٌّ أمامك ،لا يتوارى
جهاراً نهارا
يهيلُ عليك من الماء للماء كلّ صنوف البلاءْ
وآخر خلفكَ
يحلفُ باسمكْ
ويُضمرُ سوءَ المصير لمصرَ وكلَّ العداءْ
ترى أيُّ خصميك أولى بنارِكْ؟

وحرقة ثارك؟[47]

ثمّ يتوجّه بسؤال إلى رمل الصحاري وحنايا البراري وجنان الوطن ،سؤال واحد لها جميعا، يُكَرر أداة السؤال "أما" في مطلع كلّ تركيب نداء، وكأنه يسائل " رمال الصحاري،وحنايا البراري،وجنان الوطن" محاكماً لها، ضائقاً ذرعاً بصمتها، منكراً القهر الذي لاينتهي، مظهراً بسؤاله ضيقه ويأسه وغضبه، ولعلَّ في تتابع النداء قبل السؤال ما يُجسّم صرخة عالية كُبتت طويلاً، يقول:

أما يا رمالَ الصحاري

أما ياحنايا البراري

أما ياجنانَ الوطن

لقهر بنيك انتهاءْ؟

لقد طال عمرُ المحن![48]

وفي قصيدة "اعتذار أب" تبدو الأسئلة المتتالية التي يوجهها لزوجته سوْطاً يجلد به ذاته العاجزة عن حماية أُسرته، وتحقيق مطالبها ،وكأنه بها يدينُ نفسه أمام زوجته مظهراً بالأسئلة حقيقةً هو يعرفها تمام المعرفة، فيكون السؤال يقيناً، ولكنه حائر أمامه:

هذا جنيتُ أنا أنا؟

أتصدقين؟

أو لستُ مثلك والدا؟

أو لم نصغ أعمارهم كالدمع من آماقنا؟[49]

وفي قصيدة"محاورة العرّاف القديم" تتابع الأسئلة في محاورته ،التي يحاصر بها العــرّاف، ليجــد إجابات عنها باحثاً عن الحقيقة واليقين:

يُحيّرنا صمتُ شمّ الرواسي:

تراها تغور؟

تراها تدور؟

تراها بما حملته تميدُ؟

ونحن على عتبات الرجاء نبيدُ[50]

ويتعالى صوته في إنكاره، فلا يجد إلاّ الأسئلة المتتابعة، التي سُبق كلّ منها بنداء ارتكزت عليــه نقطة التأزّم ومخاض الكشف والمواجهة:

فيا مالك الأمر في البرّ والبحر

كلّت أكفُّ المصلين!حتّامَ هذا الصدودُ؟

ويا صاحب السرّ

بالشفع والوتر ماذا تُريدُ؟

وماذا يريدُ الزمان الحقودُ؟[51]

ولكنه في ختام قصيدته يسأل سؤالاً فيه اعتذار عن ما في أسئلته السابقة من جرأة وبوح، مبيّناً أنّ السؤال بذاته دليل على الحبّ الذي يدفع إلى الطمع في سعة صدر محبوبه،يقول:

تساءلتُ:من لي سواك؟

سوى العشق حُملت من بعدُ

والوجد حملت من بعدُ[52]

ويظهر السؤال في قصيدة "كوابيس"جلياً واضح التجسيم لنزاع الأمل مع اليأس، في معركة الإنسان الفلسطيني مع واقعه المرير، ولعل فكرة القصيدة الظاهرة في عنوانها، تنسجم مع اختيار الأسئلة المتتابعة في إبراز معنى الكابوس وتجلياته الدلالية ، يقول الشاعر عبد الرحيم عمر خارجاً بأسئلته إلى دلالة التمني والرجاء في حلم يصارع الكوابيس الملازمة لليلٍ أضحى تنيناً :

الليل تنينٌ يطارد سرب أحلام النيام الحالمين

فمتى الصباح ؟

هل يزهر الصوان في بلادنا

وفي صحاري الملح يطلع الأقاحْ؟

ونتنهي المواجع العقيمهْ

وسورةُ الوعظ التي تطلقها الألسنة الأثيمهْ[53]

ثم يوجّه أسئلة متتابعة في المقطع الرابع من القصيدة ذاتها لموطنه واصفاً إياه بـــ"قلعة الحب التي احتمت بها أحلامنا القديمة"[54] :

فهل ترى تخذلني

وتقتل البذورَ في آكامها

وتقتل الزهورَ في أكمامها

وتترك الأشواقَ للأشواك والعشّاقَ للجريمهْ ؟[55]

إنها أسئلة متتابعة متولّدة من السؤال الأول "فهل تُرى تخذلني" ؛ فقتل البذور وكذلك الزهور، وترك الأشواق للأشواك ،والعشاق للجريمة ،كلّها تجليّات لخذلان الوطن لبنيه ، وهذا ما يخشاه الشاعر ،فيسائل وطنه مظهراً هواجسه وكوابيسه ، وكأنه بأسئلته هذه يرجو وطنه أن لايفعل ما يخذله.

ويعود في المقطع الخامس من القصيدة نفسها إلى الأسئلة المتتابعة المجسّمة للخوف من مشهد تحقّق بعد أن كان كابوساً، مستهلاً أسئلته بتركيب النداء:" يا ربِّ!"، وما يوحيه النداء من دلالات الخوف والفزع إلى المنقذ الوحيد:

يارب ّ! هل حان النشورْ

و زلزلت زلزالها

وأخرجت أثقالها

أم قام سكان القبورْ

للحشر في هول القيامهْ؟؟[56]

وينهي قصيدته بأسئلة متتابعة، تجسّم ألمه وحيرته وغضبه مما حدث وسيحدث مكرّراً سؤاله:" ماذا يقول" الذي يعني عبثية القول أمام ما يجري في وطنه، وكأنه بسؤاله يؤكّد يقيناً بأنه لم يبقَ ما يُقال، ويُعلل أسئلته وما فيها من دلالات:

ماذا يقول الشاعرُ الحزينُ إذ يُغني

ماذا يقول الشاعر الحزين

في وطن يرى به متّهما منذ يفكُّ أول الحروفْ

ليوم أن يُلقى عليه الطين

ماذا يقول شاهد السنين

وهو الذي إذا حكى مشى على سكينْ

و دونه السيّاف والسيوف

ودونه الألوفْ

تحلمُ بالنهاية الكريمهْ

ووطن يقيم للإنسان بعض قيمهْ[57]

وهكذا نرى أنّ السؤال يولّد أسئلة بحيث تغدو القصيدة سؤالاً كبيراً دالاً على حيرة تبحث عن إجابة ، وما ذكرناه في هذه الدراسة هي نماذج دالّة مختارة تشابه عدداً آخر من قصائد حفلت بالأسئلة بأسلوب ودلالات تكاد تكون متقاربة أو متشابهة .

ثالثاً: السائل والمسؤول

عكست أسئلة عبد الرحيم عمر فوران نفسه، وعدم استقرارها ،وحيرته في مواجهة الهزيمة، وما رافقها من تهجير وضياع واغتراب .

إنه يبحث في أسئلته عن جواب هو بذاته سؤال ، ويبدو أنه بسؤاله يتلمّس من يشاركه مشاعره وضياعه وهمّه ،ولذا يُمكن أن نَعدَّ أسئلته تنفيساً يتحول فيها من ذاته إلى الآخر (المتلقي)، ليريه الأشياء التي يراها بعيونه هو، مبرزاً له الحقيقة ليناصره في قضيته،فالسؤال وسيلة المعرفة ،والدفاع ،والسبيل الموصل للحقيقة، وأداة التنفيس الأقدر على تجسيم المشاعر المُتأجّجة ، كما أنّ السؤال من الوسائل التأثيرية التي تحقق بعداً انفعالياً يجمع بين المرسل والمتلقي ، هذا الانفعال المقصود في الأدب التحريضي أو الثوري، الذي يستفزُّ المتلقي مُزعزعاً صمته وسلبيته ، جاعلاً إياه مشاركاً في الوصول إلى الخبر،ولعلَّ هذا يعلّل ارتباط أسئلة عبد الرحيم عمر بالنداء الذي شكّل بنية استهلالية مهّدت للسؤال ؛فهو ينادي متلقياً مخصوصاً يتوجّه له بالسؤال .

وجاءت جلُّ أسئلته طالبة إقرار المتلقي أو إخباره ،مبتعدةً عن طلب الجواب ، فالإجابة معلومة عند السائل ،ولكنه يطلب من متلقيه أن يشاركه مشاعره إزاء هذه الحقيقة التي لا يقوى على استيعابها أو تقبُّلها، إنه ينقل للمتلقي الحقيقة المريرة بثوب السؤال مجسماً حيرته وحرقة نفسه، ليصدمه بحقيقة قضيته التي أدرك غيابها عن ذهن المتلقي ، فكان السؤال هو السبيل لإحداث الصدمة، وإدخال المتلقي في مواجهة مع النفس لإقناعه برؤيته وتحفيزه على نصرته ومشاركته همّه وحيرته.

وقبل الحديث عن متلقي السؤال ، نبيّن أنّ السائل عند عبد الرحيم عمر غالباً ما يكون هو الشاعر الذي تظهر شخصيته بضمير المتكلم، ولكنه في عديد من قصائده التي حوت السؤال، حمّل شخصيات أُخرى أسئلته ، ولذا كان التوقُّف عند السائل وسؤاله مندمجاً مع الحديث عن متلقي السؤال.

ذكرنا في تأملنا لقصيدة " بطاقة عابر مجهول" أنه حمّل سيدةً أسئلةً افترض أنها توجهت بها إليه، فأعاد طرح هذه الأسئلة ، وغاب صوت السائلة في ظلّ صوته الذي تبادل الأسئلة والإجابة عنها في تناوب جعل القصيدة تموج بالحركة التي كسّرت نمطية الخبر والتلقين المباشر للفكرة[58].

ونقل في قصيدة "الرحيل عن جيُّوس" سؤال زوجته:" ماذا أعدُّ لك المساء؟" محمّلاً سؤالها نغمة صوته الغارقة بإحساسه بعبثية دوره ،وقهره من عجزه وصمته[59].وهو بتلك الأسئلة يحمّل المرأة قدراً كبيراً من حيرته ودهشته .

وذكرنا أيضا أنه حمّل رجلاً عجوزاً أسئلة وجهها إلى نفسه ، وقد مثّل الشاعر عبد الرحيم عمر دور الجيل الشاب الذي هاجر إلى العراق بعد النكسة الفلسطينية متمثلاً بهذا جيلَيْن، وذلك في قصيدة"المخاض"[60]،ولا نراه يجيب عن الأسئلة التي حمّلها للرجل العجوز، بل نراه يتوجه مباشرة بلسان الشاب إلى مدينة بغداد ، وكأنه يستهل بأسئلته المتتالية خطابه إلى بغداد وأهلها، فالأسئلة تعبير عن الاشتياق ،و وفاء الذكرى الباعثة على النُصرة ومشاركة البغداديين الخطاب بتوجيه الأسئلة إليهم بوساطة الشاب المسؤول[61].

ويظهر السؤال في قصيدة " من ليالي بنلوب" على لسان بطلة القصيدة، التي سيطر حوارها مع ذاتها على المشهد الدرامي فيها من أولها إلى آخرها ، وقد أظهر السؤال حيرتها، وتأزُّم صراعها في انتظار حبيبها الغائب أوديسيس، يقول:

وبخاطري نغم يُعيدْ:

أتُرى يعودْ؟

بحارُك المعبودُ مرفوعَ الجبينْ

أم لا يعودْ؟[62]

ويتكرر تجسيم السؤال لحيرة بنلوب في خاتمة القصيدة ،فنسمعها تقول:

وخبا الضياء

أ تراهُ يأتي في الظلام

و لا يضلُّ طريقه عبر البحارْ؟[63]

ويسأل الشاعر من لا ينتظر منه جواباً؛ فمتلقي السؤال ميت ، قهر موتُه شاعرنا،وأشعره بمزيد من الحيرة والضياع والاغتراب ، فكان السؤال وسيلة الخلاص ،مجسّماً فيه ألم الشاعر وحسرته على الراحلين، ففي قصيدة " في ذكرى والدي"[64]،نراه مستحضراً خيال والده، مخاطباً إياه بندائه المتبوع بالسؤال، دون أن يسمعنا صوت أبيه في هذا الحوار الخياليّ ،الذي قصد فيه بثّ أحزانه لأبيه، فكان السؤال محاولة لإعادة الحياة فيمن غيّبه الموت:

" أبا العبد" هل حقاً أراكَ تزورنا أم أنيَ في وسواس حزني حالمُ؟

"أبا العبد" هل آن النشور فأسرعت جموع لأهليها وحنّت زوائمُ؟[65]

إنّه يُتبع سؤاله الأول بسؤال ثان، يعزّز فيه دلالة الدهشة واللهفة لرؤية والده، ثم يُتبعه بسؤال ثالث يبيّن فيه انغماسه في الخيال الذي حقّق له رؤية والده، بل ونراه يوجّه عتاباً لوالده جسّمه في أسئلة لاحقه بها، وكأنّه يحاكمه أو يقاضيه، وذلك حين استيقظ، فأدرك أن والده مجرّد حلم زاره طيفه، ثم غاب، فلامه بالسؤال على غيابه،يقول مسائلاً والده:

ندمتُ على ان كشّف العينَ جفنُها وهل نافعي أنّي مدى الدهر نادمُ؟
"أبا العبد" عفوا فالرجال مواقف رواسٍ كأحلام الجبال صلادمُ
كذلك قد علّمتنا في طفولة فهل غيّر الرأيَ السديدَ المعلّمُ؟
وهل غيّر الموتُ العهودَ وأخلقت كما أخلقت تحت التراب العمائمُ؟[66]

وفي قصيدة "المُغنّي الراحل"يقول مُسائلاً الشاعر الشهيد راجح السلفيتي، مُقدّماً بأسئلته المتتالية للمتلقي سيرة لحياة هذا الشهيد بأسلوب غير مباشر،فتفيض أسئلته بالأسى، فالشهيد أمضى حياته في الارتحال والتشريد والمنفى ، ثم يأتي السؤال الذي يخشى الشاعر إجابتَه ،والمتمثل في حقيقة مفادها أن ارتحال المخاطب مختلفٌ، لأنه ارتحال أبديّ لا عودة فيه:

أرحيلٌ مثلما عوّدتَنا؟
أ نوىً للسجن والمنفى و للتشريد من وادٍ لوادْ؟
أم رحيلٌ ما له بعدُ معادْ؟[67]

ونراه يعود للوراء؛للماضي البعيد ،ويقدّم قصيدة رثاء لعبد الله بن الزبير مُبيّناً في وصفه لها بأنها جاءت مُتأخرة. ولعلّ الذي ذكّره بقصة الزُبير هو الظلم والخيانة المُتأصّلة في التاريخ العربيّ،فنراه يستنطق عبد الله بن الزبير بسؤال، ويحثّه على الإجابة بقوة ،ويجيب هو عنه، مواجهاً إياه بالحقيقة ،يقول:

أ فمن قضى والسيف في يده يخطُّ
لعزّة الآتي سُننْ
مثل الذي يقضي وفي يده الثمنْ؟
قلها و لاتخشى الملامْ:
قصفت جيوشُ خليفة الإسلام مكّةَ
دكّت البيتَ الحرامْ[68]

إنّه في سؤاله يطرح الأمر لمناقشته،إنه يستنطق حقيقةً قُتل من أجلها الزُبير،فالسؤال دعوة للجهر والفضح، إنه يطرح موازنةً بين أمرَيْن يرفض المساواة بينهما؛ فمن قضى والسيف في يده، ليس كمن قضى وفي يده الثمن.

ويُسائلُ الشاعر عبد الرحيم عمر الطبيعةَ في تأمّلاته وبحثه عن الحقيقة، مُظهراً في أسئلته هذه حيرته التي تجعله يستنطق الكائنات غير البشرية ويُؤنسنها ،علّها تجيبه وتخلصه من همّه،وهـذا يدلّ على أنه يبحث عمّن يسمع حيرته، ولذا نراه في قصيدة "انتظار" يخاطب الليل مُسائلاً إياه عن

موعد الصباح، بعد أن أخبره بهمه، شاكياً له الظلام، وكأنه بسؤاله يُصرح بمللله وضجره من امتداد الظلم زمانياً، يقول:

ياليلُ قد شابت أمانينا وعاث بها الظلامْ

فمتى الصباحُ يهلُّ؟! قد ملَّ النيامْ[69]

ويُخاطب الذئب مُتقمصاً شخصية المُرقّش بسؤال يستهل به قصيدة"المُرقّش في أيامه الأخيرة" ،مُنكراً عليه ذلك اللغز الكامن وراء عوائه، يقول:

ساهمٌ وجه المساءْ

وعواء الذئب لغزٌ يتحدّى

ما الذي تبغيه يا أطلس؟ ما هذا العواءْ؟

مُبهمٌ أنت ![70]

ونراه يسألُ الربابةَ في قصيدته"صلوات في إرم"، ويكرّر سؤالها ،علّها تجيبه عزفاً يناسب تأملاته لمدينة"إرم" وما أثارت فيه من حيرة، سببُها سؤاله كيف حلَّ بإرم وأهلها هذا الزوال بعد كلّ تمام وكمال،وأين سيكون موضعه هو من هذا المكان الذي عزّز فيه غربته ومأساة عروبته:

سألتُ ربابتي

يا دارُ أين يبيت ليلتهُ

مُغنٍ ضيّعته الدارُ في حُمّى نواديها

أحلما ما أرى أم هذه إرمٌ

مهدّمةٌ على جبروت بانيها؟[71]

ويعود إلى سؤال ربابته في نهاية القصيدة عن عذر من بكى إرم خوفاً وإجلالاً:

سألتُ ربابتي

والريح تعول في حواشيها

أيُعذرُ من بكى من زهو قسوتها

بأن يبقى على الحالين باكيها؟[72]

ونراه يُسائل مدينة جرش سؤال العاشق الذي يتغلغل في عالم معشوقه، ويشاركه أسراره الدفينة،وكأنّه يُسقطُ حيرته على المكان بسؤاله:

من يا حبيبة أيقظ الحبَّ الذي هدهدتِ

آماداً طوالاً كي ينام

وسقيتِ إذ ضجَّ الغرام

من خافي صفو المدام

واليوم،ها أنا، والهوى المكتوم في القلب ارتعش

بادٍ أساي،مُعذّب الخطوات أعبرُ يا جرش![73]

ويُسائل رياح الوطن أسئلة يجيب هو عنها ،فيكون السائلَ المجيبَ، وكأنــه يريــد مــن متلقّيــه الاعتراف والإقرار بإجابته التي يراها اليقين المُستبعِد لأيّ إجابة أُخرى ،وذلك في قــصيدة "فــي بطن الحوت" ،حيثُ يقول:

يا رياحَ الوطن

ما الذي يجمع بين الموتِ والحبّ سوى ساعةَ حسمِ

واندماجٍ أزليِ بالخطايا

ماالذي يجمع بين البحر والإنسان غيرَ الحبّ

والرغبةِ في بعض المرايا[74]

وقد احتلَّ سؤال الشاعر لنفسه حيزاً كبيراً من تساؤلاته ، ويعود هذا إلى رسوخ خطــاب الــذات وتأملاتها في حيرتها الداخلية، وصراعها الشرس مع واقع مرير ،يقول في القصيدة السابقة ذاتها:

من أنادي؟

لم أعُد أملك صوتي

لم يعد للصوتِ بعدٌ أو صدى[75]

إنّه يُسائل ذاته ،ويوحي سؤاله بالحسرة الحائرة ،وغياب النصير والمساعد، ولذلك نراه يُتبع سؤاله بتعليليْن؛فهو لم يعد مالكاً لصوته ، ولم يعُد لصوته بعد أو صدى، فكيف ينادي ومن؟!

وفي قصيدة "ضائع على الدرب" يُسائل نفسه مجسّماً بسؤاله ذلك الصراع والخوف الحائر بأن يكون لابنته رجاء المصير ذاته؛ مصير الغربة والشتات:

ومن الذي يدري؟

فقد تسري رجاءُ كما سريتْ

وتمضي في المتاهات الموات كما مضيتْ[76]

وفي قصيدة "هارب من حلمه" يبرز سؤاله لنفسه في جسد القصيدة مجسماً دلالة التحفيز على المواجهة والكفاح ؛فلا مفرّ من حتمية الدفاع عن العرض والأرض، وكأنه بهذا السؤال يظهر في شخصيتيْن؛ شخصية الهارب"المسؤول" ،و شخصية المُحفّز على الكفاح المُنكر للفرار"السائل":

تفرُّ ؟ وأين المفرُّ؟

وفي كلِّ صوب صليبٌ وأسرُ[77]

ثم يتابع حديثه مع ذاته بالسؤال ذاته، ولكنّ نغمة الانكار والدهشة تتصاعد مع تصاعد الصراع الذاتي:

رويدكَ أين المفرُّ؟

و ما زال في الدّرب شيء يشدّك[78]

ويختم قصيدته بالسؤال ذاته وتعلو نغمة الأمر والحثّ:

لعنتك كيف،وأين تفرُّ؟

هو اليومُ أمرُ

هو اليومُ أمرُ[79]

ويبرز حواره لذاته في الأسئلة التي توزعت في جسد قصيدته"أحزان في العيد"، التي استهلها بقوله مسائلاً نفسه لائماً إياها على مرارتها وحزنها الدائم:

الكلُّ يرفل في الأعياد جذلانا

أما كفاكَ مرارات وأحزانا[80]

بل ونراه في القصيدة ذاتها يوجه سؤالاً إلى العيد، مستعطفاً إياه أن لا يتركهم ويمضي دون أن يُضفي عليهم سعادة الحرية والكرامة ، ويستهل سؤاله هذا بتكرار نداء العيد، ليتعزز معنى التوسُّل والملاحقة والرجاء:

يا عيد! يا عيد!هل تمضي وتتركنا

فريسة الذُّلِّ أحرارا وعبدانا[81]

ويكرّر الأسلوب ذاته متوجهاً بسؤاله هذه المرّة إلى مدينة عمان التي يصفها بأنها أمّه :

عمّان!عمان!يا أمي التي شهدت

أحلى لياليَّ أنغاما وأوزانا

هل تحفظينَ أناشيدي وما حفلت

به نواديك أشعارا وأشجانا؟[82]

ويلتفت إلى العيد مرّة أخرى بسؤال يُظهر فيه ألمه ممّا يجري لوطنه ،مُحملاً أمّة العرب المسؤولية ، وهو بسؤاله يُظهر استنكاره بأسلوب غير مباشر للمتلقي العربي الذي يسمع سؤاله للعيد، إنه ينتقل بخطابه من ضمير المتكلّم المفرد إلى الإنكار بضمير الـ(نحن) في قوله:

يا عيدُ أججتَ في الأحشاء ثورتها

وهجتَ في القلب أحزانا ونيرانا

ماذا أقولُ وعينُ الضاد غافلةٌ

ألهى التكاثرُ قحطانا وعدنانا؟

خان السلاحَ ذووهُ في معاركهم

تُرى جُننّا؟أم أنّ الخطب أعمانا؟[83]

وهكذا بدت الأسئلة في قصيدة "أحزان في العيد"منطلقة من الذات إلى الذات، فسؤال العيد وسؤال مدينة عمان تجليّات لحوار النفس.

ووجّه أسئلة إلى الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد في قصيدته التي نظمها له ،وقد عاده إثر جراحة في القلب ، وخرجت الأسئلة فيها إلى دلالة التشجيع، لأنها تخبره من باب الاعتراف والتأكيد بشجاعته ونُبل أخلاقه، ليكون ذلك حافزاً له على مجابهة المرض،يقول:

ألَستَ من "أسد" تعنو الأسود له

بأيّ حاليْه: قوّال وزآرِ[84]

ثم يتوجّه إليه بسؤال آخر خرج إلى دلالة الاستغراب والدهشة من أن يمرض قلبُ ناصر الدين الأسد كمرضه هو فيجمعهما المرضُ ذاته:

"بي مثل ما بك" ما هذا الذي قذفتْ

به الدَّواهمُ في ساحي و في داري

أأنت أيضا أقامت بين أضلعه

بنتُ الدهور بليل دامس قارِ؟![85]

ويعود السؤال مكثّف الحضور ملاحقاً ناصر الدين الأسد بكل صفة راقية فيه لتعلو فيه الإرادة والصمود:

من مسعفي و هو كالسّاعين معتمرٌ

ينأى به قدرٌ مستحكمٌ جارِ

ومن أرومُ مُغيثا إن ونى أسدٌ

ما كان قطُّ دنا عن لهفة الجارِ

لا! لا! أبا البشر إنّ النفس إن عظمتْ

سمتْ على كلّ ما في الداء من رارِ

وأين ذا الداءُ من شأوٍ تجاوزه

علمٌ وحلمٌ وبحرٌ طوع بحّارِ[86]

ومن سؤال الصديق ينتقل إلى سؤال الصديقيْن ،على نهج الشعراء القدامى في بث أحزانهم وتأملاتهم الحائرة ، فيكون التوجه إلى هذا المتلقّي شكلاً من الأشكال الحوارية المضافة المُدرجة

تحت مظلة سؤال الشاعر لذاته،ويظهر ذلك في قوله في المقطع ذاته من القصيدة، أنه اعتاد معالجة أوجاعه بالكتمان والتصبر والخدر، ولذا لم يوجّه سؤاله لصاحب واحد مُتخيّل ،ولكنّه وجّهه إلى صاحبيْن، وكأنّ يريد أن يبيّن أنّ السر الذي طالما كتمه، أصبح لا يقوى على احتماله وسماعه صاحبٌ واحدٌ فقط ، يقول في قصيدة "كلام...على بطاقة سفر":

يا صاحبيَّ !

تراهُ يخلبني الملامْ؟

أم أكظم الشكوى وأرضى بالنهايات التي اعتدنا

وأقبلُ قصة أخرى وأعنو للقدرْ؟

وانا الذي عالجتُ أوجاعي

بكتمان المواجع والتصبّر والخدَرْ[87]

ويظهر حواره مع المرأة في كثير من قصائده حائراً، فلا يجد أفضل من تركيب السؤال لتجسيد هذه الحيرة، ولكنّ حيرته ليست متشحة بالحزن دائما ،فقد شابتها في عدد من المواضع سعادة خائفة،اقتربت من التأملات، فغاب صوت من يُسائلها، وكأنَّه يريد منها فقط الاستماع إلى بوح سؤاله.

يقول في قصيدة "بعد أعوام" مُسائلاً من سمّاها بـــــــــ"قدري السعيد":

هذي يدي يا نجمتي الغرّاءَ يا قدري السعيدْ

أترى أعود أُطوّفُ الدنيا الغريبهْ؟

أم أنّ لي قدرا جديدْ؟

من مُنبئّي؟! يا نجمتي الغرّاءَ يا قدري السعيدْ![88]

وهكذا، فما ذكرناه في هذه الدراسة هو عرض دّال على رسوخ تركيب السؤال في شـــعر عبـــد الرحيم عمر، هذا الرسوخ المُجسّم لنفسيّة حائرة، تبحث عن إجابة محدّدة، هي الأمل بالإســـتقرار في وطن ضاع فضاع أبناؤه، وظلّوا يحلمون بالعودة إليه ؛مرة بقوة وتصميم ،وأخـــرى بحيـــرة وخوف من عدم العودة،وقد اختارت مشاعر شعرائهم ،و منهم عبد الرحيم عمر أساليب عديدة في خطابهم الشعري ، أبرزها أسلوب السؤال بتجلياته الدلاليّة الغنيّة.

[1] تتسع مسافة التجاوز بين الوجود الفعلي للتركيب النحوي في سياقاته والوجود النظـــري فـــي معالجات البلاغيين ينظر دراسة عيـــد بلبـــع، أســـلوبية الـــسؤال : رؤيـــة فـــي التنظيـــر البلاغي،الطبعة الأولى ، دار الوفاء، 1999م

[2] هنـــريش بليـــث، البلاغـــة والأســـلوبية،ترجمة محمـــد العمري،الطبعـــة الأولـــى ، الـــدار البيضاء،1989م،ص32-34
[3] بلبع،عيد،أسلوبية السؤال ،ص:48-52
[4] عمر ،عبد الرحيم، الأعمال الشعرية الكاملة ،منشورات مكتبة عمان،ص270
[5] عمر،عبد الرحيم،الأعمال الشعرية الكاملة،ص278
[6] المصدر السابق،ص180-181
[7] المصدر السابق،ص486
[8] المصدر السابق ،ص93
[9] المصدر السابق،ص94
[10] المصدر السابق،ص423
[11] المصدر السابق،ص34
[12] المصدر السابق،ص45
[13] عمر،عبد الرحيم،ديوان"بعد كل ذلك"،قصيدة "أبو محجن يموت فـــي ســـجن نفحـــة"،وزارة الثقافة،ط1، 1997، ص71
[14] الأعمال الشعرية الكاملة،ص464
[15] عمر،عبد الرحيم،ديوان"بعد كلّ ذلك"،ص65
[16] عمر ،عبد الرحيم،ديوان"بعد كلّ ذلك"،ص89
[17] الأعمال الشعرية الكاملة،ص118
[18] المصدر السابق، ص407
[19] عمر،عبد الرحيم، ديوان"بعد كل ذلك"،ص91
[20] الأعمال الشعرية الكاملة ،ص472
[21] المصدر السابق،ص489
[22] المصدر السابق،ص460
[23] عمر،عبد الرحيم، ديـــوان" تيـــه ونـــار "،منـــشورات وزارة الثقافـــة،عمان ،الأردن،ط3، 1993،ص13
[24] الطبعة العربية الأولى،دار الكرمل،عمان،2002م
[25] تُنظر المقالة في مجلة الرافد،العدد164،إبريل،2011،ص116-119
[26] عمر،عبد الرحيم،الأعمال الشعرية الكاملة ،منشورات مكتبة عمان،ص99

[27] المصدر السابق،ص100

[28] المصدر السابق، ص101

[29] عمر،عبد الرحيم،الأعمال الشعرية الكاملة ،ديوان أغاني الرحيل السابع،ص405

[30] المصدر السابق،ص412

[31] عمر،عبد الرحيم،ديوان تيه ونار،الطبعة الأولى،وزارة الثقافة،عمان ،الأردن،1993،قصيدة"من أجلنا لا ترحلوا"،ص24

[32] عمر ،عبد الرحيم،ديوان "بعد كلّ ذلك"،الطبعة الأولى،منشورات وزارة الثقافة،عمان/الأردن،1997م،ص79

[33] المصدر السابق،ص80

[34] المصدر السابق،ص116

[35] المصدر السابق،ص429

[36] المصدر السابق،ص127

[37] المصدر السابق،ص128

[38] عمر،عبد الرحيم،الأعمال الشعرية الكاملة،ديوان"قصائد مورّقة"،ص240-241

[39] عمر،عبد الرحيم،ديوان"بعد كلّ ذلك"،وزارة الثقافة،عمان /الأردن، الطبعة الأولى،1997،ص93

[40] المصدر السابق،ص94

[41] المصدر السابق،ص94

[42] عمر،عبد الرحيم، الأعمال الشعرية الكاملة،ص380-381

[43] المصدر السابق،ص381

[44] المصدر السابق،ص484

[45] المصدر السابق،ص419

[46] عمر،عبد الرحيم، ديوان " بعد كلّ ذلك"، ص166

[47] عمر،عبد الرحيم ، ديوان"بعد كل ذلك"،ص169-170

[48] المصدر السابق،ص170

[49] عمر ،عبد الرحيم،الأعمال الشعرية الكاملة ،ص161-162

[50] المصدر السابق،ص451

[51] المصدر السابق،ص451

[52] المصدر السابق،ص454
[53] عمر،عبد الرحيم،ديوان بعد كل ذلك،ص120
[54] المصدر السابق،ص121
[55] المصدر السابق،ص121
[56] المصدر السابق،ص122
[57] المصدر السابق، ص124-125
[58] تُنظر الصفحة6و7 من هذه الدراسة.
[59] تُنظر الصفحة5و6 من هذه الدراسة.
[60] تُنظر الصفحة 4 من هذه الدراسة .
[61] تُنظر القصيدة في:عمر،عبد الرحيم، الأعمال الشعرية الكاملة،ص 412-416
[62] الأعمال الشعرية الكاملة،ص76
[63] المصدر السابق،ص77
[64] عمر ،عبد الرحيم، ديوان"تيه ونار"،منشورات وزارة الثقافة الأردنية، ط1، 1993م،ص105
[65] المصدر السابق ،ص105
[66] المصدر السابق،ص106
[67] عمر، عبد الرحيم،ديوان"بعد كل ذلك"، قصيدة"المغني الراحل"،ص156
[68] الصدر السابق،قصيدة"رثاء مُتأخر لعبد الله بن الزبير"،ص134
[69] عمر ،عبد الرحيم ، "الأعمال الشعرية الكاملة"، ص 78
[70] المصدر السابق، ص379
[71] المصدر السابق،ص431
[72] المصدر السابق،ص432
[73] المصدر السابق،ص424
[74] المصدر السابق،ص275
[75] المصدر السابق،ص275
[76] المصدر السابق،ص31
[77] المصدر السابق،ص34
[78] المصدر السابق،ص35

[79] المصدر السابق،ص35
[80] عمر،عبد الرحيم،ديوان"تيه ونار"،ص29
[81] المصدر السابق،ص30
[82] المصدر السابق،ص30
[83] المصدر السابق، ص32
[84] المصدر السابق،قصيدة" بي مثل ما بك "،ص38
[85] المصدر السابق،ص38
[86] المصدر السابق،ص39
[87] عمر ،عبد الرحيم،ديوان"بعد كلّ ذلك"،ص145
[88] عمر، عبد الرحيم،الأعمال الشعرية الكاملة ،ص82